**عاشق الحرية**

كانت تلك الأيام قادرت على الكشف عن خبايا تلك الشخصية التي تطلعت نحو المستقبل، من تلك المراحل التي عاشت فيها وترعرعت بين ثناياها. لم تكن لحظات الولادة الأولى والثانية شيء طبيعي وسهل على طفل لا يعي كيف ولماذا يحيا المرء وكيف ينتهي حياته على هذه الأرض. فكل مسالك الحياة كانت صعبة العبور والسواد كان يخيم على كل الوجوه والقلوب. والحياة لم تكن تطاق في هذا الواقع المنسي والضائع. حيث لا وجود لأنسان صاحب وجود وكيان، وكل الوجوه التي تتراء أمام أنظارك ليست حقيقية، بل سرب من دخان، متى ماهبت عليها الريح تتبخر مثل سراب من الدخان في لمحة عين. نعم صديقنا ورفيق دربنا شرفان ولد في هذا الواقع المآساوي والذي كانت تختلط فيها كل النوايا والأطماع والصراعات على العيش دون هوان وهي تقتحم الواقع لتحوله لجحيم لا يطاق. لكن رفيق دربنا شرفان جيا ذلك الملهم بالحب والعنفوان ومنذ نعومة أظافره وأمتشاقه العلم والمعرفة من فكر وفلسفة القائد عبدالله أوجلان يعي كل هذه المسائل منذ السنوات الأولى من عمره وخاصة أثناء دراسته. لذا لم يكن يحب تلك الحياة التي لا معنى ولا قيمة لوجود كائن حي يتطلع نحو الحرية.

هذه الحياة التي كافح الأنسان ووهب روحه لأجل أن يجعلها جميلة بكل معنى الكلمة. وهاهو نفس ذلك الأنسان بدأ يحفر قبره بنفسه في هذه الأجواء التي يتبخر فيها كل شيء حي ويتدحرج نحو عالم لا يعرف أحد أين سوف تكون نهايتها. فقد كانت كل شيء في هذه الحياة تخلق عنده التناقض والتفكير العميق وهو ينبش بين زويا مرارة العيش التي تجعله يفكر ويتأمل بمكامن هذه الحياة ليعي ما يدور ويلف من حوله من ظواهر وأحداث تقلب الأفكار وتطمر القلوب بين براكين الأطماع والمصالح التي لا تنتهي ولا تيأس من الحروب والدمار الذي تطال كل الأزمان والعصور وهي تبدأ بأفتراس العالم أجمع.

بعد أن ترك الدراسة تعرف أكثر على صعوبة هذه الحياة، لأنه اضحى وجه لوجه أمام مسالك هذه الحياة، ولكنه لم ييأس رغم ذلك. بل بدأ كرسام يحفر على صفحات الصخور القاسية وبكل حنكة، صبر، أرادة وأتقان. كي يرسم لوحة تنطق بما يجول في قلبه وخواطره وتفيد بآماله وهو يأبئ أن يجتاز كل العوائق والحواجز ليطير مثل نسراُ شامخا في سماء الوطن الخالد من دون أن تعيقه أية قوة في العالم على عشقه وحبه للحرية.

نعم أنه شرفان جيا الذي ولد من جب هذه الأرض المعطاة التي أخضرة ببزور الزيتون وتنعمت ببركة أيادي الأمهات اللواتي سقينا ربوع الوطن بالخير والسلام . تلك الأيادي الطاهرة التي تنبت الأرض بها وتثمر بركات ومواسم تتقاسم فيها الأفراح وتجتمع فيها كل القلوب العاشقة حول مائدة الكدح والعطاء التي ولدة من قطرات العرق الطاهرة التي تقاطرت قطرة - قطرة من جبين الأجداد الخالدين الذين وهبوا حياتهم لأبنائهم وأحفادهم. كان الرفيق شرفان بحق الكلمة ذلك الأبن الراعي والمكافح والأصيل، الذي أراد أن يحمل الفأس، المعول والقلم في يده وهو يحفر السواقي ويجلب الماء من عمق البحار ليقتل بها عطش الأرض وليعيد الروح لتلك الحياة البائسة الكئيبة التي لا معنى لها ولا وجود.

أعرف يا صديقي شرفان أنك كنت بحق القول والكلمة أردت أن توهب حياتك وأنت تحتضن بقلبك الصغير والذي كان يسع العالم لبناء مستقبل رائد وناجح لكل فئات الشعب الكردي والأنسانية. ولم تنسى يوماً وصية الأمهات والآباء في كل خطوة كنت تخطوها وأنت تترك بصماتك الحية على جدران التاريخ وبين أمواج بحور العيون وعلى الطرقات التي داست أقدامك عليها وأن تترك صدى وأثر كل خطوة من خطاك في كل الأصقاع والأقانيم التي كانت تحكي وتتكلم دونما تنتهي من سرد حكاياتك وأساطيرك التي كانت تمر مررو عزة وكبرياء. لتحملك تلك اللحظات التي فاقت من السبات العميق بين ثناياها وهي تحيك لك زمن يسع كل الأزمان.

كانت الولادة بداية مجهولة بالنسبة لك يا صديقي والشباب كان ثقيل الحمل مع مصاعب الحياة التي لا تنتهي وهي تقذف بك من موطن إلى موطن ومن نهاية إلى نهاية أخرى دونما معين، صاغي أو حكيماً يخفف عنك أعباء هذه الحياة التي تأبى أن تدفن الأنسان وهو على قيد الحياة ولكنك ورغم كل ذلك قد كرست كل مشاعرك وحياتك وعواطفك الجياشة في سبيل التخلص من أعباء هذه الحياة والانتقام من الواقع الأليم والمجهول والمرير، لأنك كنت تعرف بعين اليقين، أن كل شيء في هذه الحياة لم يلد هكذا هباء. بل أضحت البداية نهاية والنهاية بداية تجمع بين صفحاتها تواريخ وعهود تمزق بين أنيابها كل الحقائق التي ولدة للتو دونما رحمة.

وكأن الأنسان ولد في هذه الحياة كي يموت دونما يعطي شيء أو يعرف شيء من هذه الحياة وهي تعصف به تارة نحو الموت وتارة نحو الحياة التي تكون نهايتها مجهولة.

لكنك كنت المعين لهذه الحياة لأنك بدت ببناء المستقبل من دون ان تفكر فقط بنفسك وعائلتك. لأن خيالك كان يكبر كلما كنت ترتوي من فكر القائد عبدالله أوجلان. تلك الفلسفة التي كانت تخاطب الروح من الأعماق وتطمد كل الجروح التي كانت تدمي ولا تتوقف سيلان الدم منها. بعد هذه المسيرة الطويلة والشاقة التي أجتزتها بكل صبر وكبراياء وفزت رغم كل ذلك. فقد كانت الخطوة الحاسمة والجسورة والقرار النبيل والتاريخي الذي أتخذته، هو أنخراطك بين صفوف الحزب لأنك رأيت طريق الخلاص يمر من خلال فكر القائد عبدالله أوجلان وتعرفت على فلسفة القائد، تلك الفلسفة التي تبني الأنسان وتولد فيه الحياة من جديد وهي تضخ الدم لكامل أعضائه من جديد. تلك اللحظات الأولى من أنضمامك لصفوف الثورة جلبت معها كل شيء جديد وغيرت فيك كل شيء، وهي بدأت ترسم صورة عالم متنوع ومغاير. عالم يحمل المرء ويخطفه من دون هوادة لعالم جميل وعالم جديد. بعدما أقفل كل الأبواب التي كانت تطمر له الزوال والفناء، من دون أن يدري معنى وحقيقة هذه الحياة، ولكن بأنضمامك للحزب والثورة حملت لنا بنور عيناك العسليتين أجمل الألوان وأجمل العبر والأحاسيس الطفولية والتي بقيت مثلما ولدة دونما يمسها غبار الأزمان المتصحرة والعقود المتكلسة فوق أدمغة البشر.

نعم أنا أناديك يا صديقي ورفيق دربي في كل اللحظات حتى في المنام وأنت تساير كل اللحظات التي ولدت من العدم وأبت أن تحتضن أبتسامتك، كما أنادي الجبال والأنهار والطبيعة التي تحيطنا من كل صوب. لانك كنت بالنسبة لنا مثل السماء الزرقاء التي تجمع بين صفحاتها كل اللحظات الحلوة وترفرف بين ربوعها الطيور والعصافير وتنام على أجنحتها الزهور والرياحين. بل كنت ذلك الجبل الذي كلما تسلقته كنت أحس بالعزة والكبرياء والحرية وعندما كنت أصل لقمته وأنا اتصفح كل ما حولي وعلى امتداد نظري وأنا أحس وكأنني أملك العالم بأكمله. بل كنت بالنسبة لنا تلك الأنهار التي لطالما كنت أحب أن أتأملها في أنحدارها وصعودها وألتوائها وهي تجتاز كل تلك المسافات وتسقي كل القلوب العطشة ولا تيأس من الوحدة بل تسامر الطبيعة والزهور والأرض الخالدة، وهي تستقر في نهاية المطاف في أعماق البحار لتسكن في رحاب الخلود والسلام. بل كنت بالنسبة لنا ذلك الربيع الذي يأبى أن يجعل كل شيء في هذا الكون جميلاً وأنت تكسب الحياة لونا، طعما ونكهة لا ييأس المرء من التعايش والنظر إليها مدى الحياة.

فمنذ اللحظات الأولى من مسيرتك بين النضال والعمل الدؤوب بين صفوف الثورة كنت محبوبا من قبل كل الرفاق لأنك كبرت بالكدح وتعرفت على حقيقة القيادة منذ الصغر وكانت كل آمالك هي رؤية القيادة وأنت تكبر مع هذا الأمل الذي تحقق لك. وأنت تقتاد درب القيادة في كل خطوة من خطاك دونما هوادة ودونما تراجع عن مبادئك السامية والتي أعطيت القرار على متابعتها حتى آخر رمق وقطرة من دمائك الذكية. أبيت ان تكون الصديق المخلص والوفي للقيادة، فكان لك ذلك وأبيت أن تتسلق تلك الجبال الشاهقة في سرحد وأنت تستقبل الشمس من الشرق فطاب لك ذلك الأمل. وأنت تسافر مع ألوان قوس قوزح فوق تلك البراري، الجبال والوديدان الجميلة التي تحتضن التواريخ، العصور والذكريات التي لا تنسى ولا ينطوي عليها التاريخ.

لذلك أحببت صفاء مشاعرك وصدق مكامن قلبك المخلص للقيادة، الوطن والرفاقية. فقد كنت تأبى أن تحتضن كل شيء جميل وأنت توهب الحب، المحبة والحنان اللامتناهي من دون أن تبخل بها لمن حولك في عالمك السحري والوافر بالكلمات والعبر الخلاقة التي كنت تزرعها في بساتين الهوى لتوهبها في كل لحظة للحياة.

ها قد حان وقت اللقاء والسفر في عالمك الجديد وبأسم جديد يا رفيق دربي شرفان جيا: فها أنت الآن بدأت تعيش وإلى الأبد كرفيق مخلص ومحبوب لتلك الجبال التي لطالما كنت تعشقها وأنت تحلم بالتنقل والوقوف بعزة على قممها العالية وأستنشاق تلك النفحات الحرة وأنت تلتحم معها كنسيم عليل يسكر كل شظايا الروح الطاهرة وهو قد أعطى وفيت بوعدك وعهدك كي تكون مخلصاً لتلك الجبال التي كانت وما زالت أعشاش الثوار والكريلا ولكل أنسان يعشق الحرية. لأن تلك الجبال لا تعشق سوى الأحرار ولا تحتضن سوى المخلصين والمناضلين لأجل الحقيقة.

رفيقي العزيز: الحقيقة التي كبرت بينها وأنت تقاوم كل شيء يعيقك من تسلق تلك الجبال والوصول إلى اللامنتهي مخترقا حدود الواقع المرير والمزيف لتلتحم مع حقيقة القيادة، الشعب والوطن الخالد.

فقد كانت لتطلعاتك أفق واسعة، لأنك كنت تحب المغامرة والصراع وأجتياز كل العقبات بروحك المرحة والتي لا تعرف السكون والهدوء. بل تسابق الزمن والتاريخ لبناء عصر جديد وتحقيق الأهداف السامية لشعب ووطن يرضخ تحت نير العبودية، الفقر والزوال. لذا لم يكن يتخلى عن الوصول لمطامحه في تخطي كل الصواعب والوصول لساحة الحرب الحرب الساخنة في سرحد رغم الظروف الصحية التي كان يعيش فيها. ولكنه بالمقابل كان يعمل كل ما يوكل إليه دون النظر لتلك الأعمال بعين صغيرة أو كأنها أعمال ثانوية. فقد كان جديا في كل أعماله. ولكن طموحه دوما كان الرجوع لأيالة سرحد والأنخراط ضمن صفوف الرفاق هناك في الساحات الامامية.

رفيق دربي الأبدي لقد كنت تعرف بأن الشهادة ستكون يوماً من نصيبك وأنت تقتاد بخطاك نحو مسيرة الشهادة. فكنت تأبى أن تكون روح بريتان التي لم تأبى أن تستسلم للخيانة وهي تطير في الهواء عالياً في سماء الوطن خالدة لتكون الهوية الحرة للمرأة الكردية والشعب الكردي وهي تسطر أرواع ملاحم البطولة والفداء لتشهد للعالم بأكمله بأن المرأة الكردية نبراس وشعلة مضيئة لا تستطيع أية قوة في العالم أن تعيقها عن الحرية التي عشقتها وألتحمت معها في عالم الخلود وبين ربوع جنات الخلود لتغدوا بحق الكلمة المرأة الرائدة والقدوة لآلاف النساء اللواتي ألتحقنا بصفوف الثورة تأثيراًُ بملحمتها وجسارتها كشخصية ثورية وعاشقة الحرية. وكان كل أملك أن تكون ذلك الرفيق والصديق المخلص لكل الثوار والكريلا والشهداء من أمثال شيلان الثورية المناضلة التي عانقت آيات الشهادة وباتت أسطورة خالدة في عالم الخلود والفداء ومقاومة الخيانة بكل عنفوانها وشخصيتها التي لم تكن تعرف السكون وهي تقاوم كافة المفاهيم التي تعيق ترسيخ الفكر الثوري والآبوجي الحر والمناضل. وكنت تأبى أن تكون صديق لشعلة الحرية فيان التي لم تكن ترضى حياة بدون قيادة ولم تكن ترضى بتلك الحياة التي يفرضها العدو والتي يأبى من خلالها أن يجعلنا نتعود على العيش والحياة بدون القائد. وعلى أثر ذلك قامت بأضرام النار بجسدها لتعيق كل المحاولات التي تأبى أن تمس القيادة بسوء وتفصل بين القيادة والشعب. فقد كانت الرفيقة فيان تلك الشخصية التي تلاحمة مع حقيقة القيادة وأرادة أن تثبت للعالم أجمع. بأن القائد عبدالله أوجلان هي الهوية الحرة للشعب الكردي ولا أحد يستطيع أن يفصل بين الشعب والقيادة. وكذلك كنت تأبى أن تواكب مسيرة الآلاف من الشهداء. لأجل تحقيق كل هذه البطولات والوصول لأمتك روح الحرية كان الرفيق شرفان يحارب ذاته أكثر من محاربة العدو. وكان يعرف بأن كل ذلك سوف يتحقق عن طريق التدريب والمثابرة المكثفة. وعلى أثر ذلك ألتحق بدورة تدريبية لكي يكون جاهزاً لكل الساحات وهو يجهز نفسه للرجوع مرة ثانية إلى خنادق الحرب الساخنة. تلك السفوح الشماء والزرى العالية، ليفي بوعوده التي أعطاها للشهداء والقيادة والشعب ولينتقم لآلاف الشهداء ويصفي كل الحسابات مع الأعداء. ولكنه وبعدما أنهى تدريبه وهو على طريق التوجه لساحة (كلارشى) وفي الطريق وقبل أن يصل لمكانه أستشهد أثر كمين غادر مع رفيق دربه حسن الذي كانا معاً في نفس الدورة التدريبية.

كان لأستشهاد الرفيق شرفان جيا له تاثير كبير على كل الرفاق الذين كانوا يعرفونه والذين سمعوا به لأنه كانت شخصية محبوبة من قبل كافة الرفاق لأخلاصه وحبه الكبير الذي كان يكنه لرفاقه دون التمييز بين الرفاق والرفيقات فقد كان حسن المعاملة وصاحب لسان ناطق وحلو الكلام والعبر والتصاحب. كان المرء لا يمل من الأستماع لكلامه الذي كان يتدفق من ينابيع صافية الأحاسيس والهواجس النبيلة. فقد كان كل شيء يظهر يتدفق ويسيل عطوراً وملامح واضحة في سماته وبين أمواج بحور عيناه العسليتان اللتاني كانتا تنطقان بما يجول في قلبه، قبل أن ينطق لسانه بما يأبى أن يقول ويعبر بها.

صديقي شرفان جيا أعرف بأن الكلمات والعبر لا تستطيع أن تعبر عن عظمة وجبروت شخصيتك التي سافرت ورحلة قبل أوانها وهي تترك أثراً وجرحا ظل يدمي في الأحشاء من دون هوادة. ولكن لا تيأس من الوحدة والسفر لأنك لم تعد لوحدك بل أضحيت عالماً واسع المعاني والأفكار والهواجس وأصبحت ذلك اللحن الجميل الذي يغرد على شرفات الصباح وفي كل الأوقات وأنت تسامر كل لينالينا المظلمة لتكون تلك الشعلة التي تضيء كل جوانح الحياة حتى شروق الشمس التي بك تتوهج وتحتضن الكون في غمرة من الغبضة التي تطفوا في عالم اللأمنتهي.

**نجم عبدالله**